

تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

لقد نتج عن التطور التخصصي الذي شهدته بنية المعرفة انقسامها إلى جزرٍ منفصلة، مما أدى إلى حرمان الفكر الإنساني من الرؤية الكلية، فكان لا بدّ من تعويض هذا النقص بمشاريع تهدف إلى تحقيق تكامل المعارف وتساند مناهجها. وهكذا نلاحظ اليوم في مختلف المراكز والمعاهد البحثية - داخل العالم الإسلامي وخارجه - حضور فكرة تكامل المعارف، ونقد التجزئة التي لحقت بنية العلوم بفعل التخصص. إلا أن هذه الفكرة لها أيضًا خصوصيتها عند طرحها في سياق ثقافي أو تعليمي معيّن. ودليل ذلك أن التفكير في مسألة تكامل المعارف في واقعنا الثقافي الإسلامي يُظهر أبعادًا أخرى، حيث لا نجد إشكاليات الانفصال الناجم عن التخصص فقط، بل نجد أيضًا انفصالًا بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية، على الرغم من مقتضيات التداخل والتقاطع بينهما.

ولقد تعالت في الآونة الأخيرة دعواتٌ كثيرة إلى الوصل بين هذه العلوم، إلا أنه لم يُنجز - حتى الآن - عمل فعليّ يحقّق ذلك الوصل المنشود، حيث ما زال الأمر عند مستوى الأمل ولم ينتقل بعدُ إلى مستوى الإنجاز. ويكفي للاستدلال على ذلك النَّظَرُ إلى واقع التعليم في كثيرٍ من الكليات والمعاهد المختصة بالتكوين الشرعي أو التكوين في مجال العلوم الإسلامية، حيث يتلقى الطالب المعارف الدينية دون انفتاحٍ على الإسهامات المنهجية والمعرفية التي حققتها العلوم الإنسانية.

وللإسهام في سدّ هذا النقص، يُقدّم مركز نهوض للدراسات والبحوث سلسلة «مداخل منهجية في العلوم الإنسانية» التي تهدف إلى التعريف بهذه العلوم، مع وصلها بالعلوم الإسلامية، وبيان تطبيقاتها الممكنة على واقع الثقافة والاجتماع العربي الإسلامي. ومن هذا المنظور، فإن لهذه السلسلة خصوصية مختلفة عن كتب المداخل التقليدية. إذ يمكن القول إن المكتبة العربية لا تزال تفتقد إلى

مداخل منهجية تُعرّف بهذه العلوم مع ضبط مواطن الاستفادة منها بتطبيقاتٍ تفيد في الوصل بين هذين المجالين (العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية).

وقد حرص مركز نهوض للدراسات والبحوث في هذه السلسلة على استكتاب المتخصصين المبرزين في العلوم الإنسانية، أو انتقاء الكتب المدخلة باللغات الأجنبية المختلفة، وتقديمها بأسلوب مُفصّل يخلو من الغموض بالقدر الذي يحقّق إمكانية توسيع تداول الكتاب والاستفادة منه، دون الإخلال بمقتضيات المعرفة الأكاديمية، وكذلك تقريبها للعلوم الإنسانية من حقل الدراسات الإسلامية بنماذج تطبيقية تُبيّن إمكانيات الاستفادة منها. كما راعى المركز في هذه السلسلة التعريف بالعلم ومدارسه ومراحل تطوره، دون إغفال مستجداته الراهنة، حيث نلاحظ أن غالبية كتب المداخل المتداولة اليوم تقتصر في التعريف بالعلم على مرجعياتٍ ومعطياتٍ متقدمة، وكأن هذا العلم قد توقف عن التطور، ولا يشهد أيّ مستجدات.

ويأتي هذا الكتاب الرابع من سلسلة «مداخل منهجية في العلوم الإنسانية» بعنوان «مدخل إلى علم الاجتماع» من تأليف الدكتور شهاب اليحياوي، أستاذ علم الاجتماع بجامعة تونس المنار، ليفتح لنا نافذة على عالم الفكر الاجتماعي، مستعرضاً تلك النظريات والمفاهيم التي صاغت رؤيتنا للمجتمع والإنسان، آخذاً بأيدينا في رحلة فكرية إلى عصور متباينة، حيث تتفاعل الأفكار وتتلاقى، فتثمر رؤى عميقة تسعى إلى تفسير تحولات المجتمعات وتطورها. وإذا كان التاريخ البشري حركة مستمرة، وسجلاً تتوالى فيه فصول الصراع والتقدّم والتحول، فإن علم الاجتماع يسعى إلى كشف مكنونات هذه الحركة المستمرة، ليمنحنا رؤيةً نافذةً إلى جوهر العلاقات الإنسانية، ويُزوّدنا بأدوات نقدية لفهم ما غمض من مسالكها، وما دقّ من تعقيداتها.

لقد سعى الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع، الذين يستعرض أفكارهم هذا الكتاب، إلى تفسير التحولات الكبرى التي عصفت بمجتمعاتهم: من تصدّع الأنظمة التقليدية وبزوغ المجتمع الصناعي، إلى صعود الطبقات الجديدة ونشوء

التُّظْم الرأسمالية التي أفرزت تعقيدات اقتصادية وثقافية غير مسبوقه. فلم ينظر هؤلاء المفكرون إلى المجتمع بوصفه كياناً ثابتاً، بل رأوه حلبةً تتصارع فيها القوى، وتتنازع فيها المصالح، في حركة لا تعرف السكون. فعلى سبيل المثال، رأى كونت أن المجتمع بحاجة إلى نظام علمي يبسط قوانينه ويفهم دينامياته، فيما اعتبر ماركس أن الصراع بين الطبقات هو الوقود الذي يحرك التاريخ، ورأى دوركايم في الظواهر الاجتماعية قوًى خفية تُلزم الأفراد بالامتثال لها، أما فيبر فقد سعى إلى فهم كيف تؤدي الأفكار والقيم إلى تغييرات جذرية في الأنظمة الاقتصادية والسياسية.

ينتظم هذا الكتاب في عدّة أبواب وفصول مترابطة، يمكن ردها بشيء من التجوُّز إلى قسمين أساسيين: الأول يُعنى بالنظريات الاجتماعية، والثاني بالمفاهيم الاجتماعية. يتدبى المؤلف حديثه في قسم النظريات بتوطئة عن نشأة السوسيولوجيا وتطورها الكلاسيكي، وتحليل الأسس النظرية والمفاهيم المركزية التي قام عليها الاجتماع بوصفه علمًا، مع استعراض أهم رواد هذا العلم، مثل أوغست كونت، وكارل ماركس، وإميل دوركايم، وماكس فيبر، موضِّحاً عدّة نماذج تطبيقية قدّمتها هؤلاء العلماء من واقع الحياة الاجتماعية، مثل: تحليل دوركايم لظاهرة الانتحار، وماركس للظاهرة الدينية والثورات السياسية، وفيبر للبيروقراطية، ولا يفوت المؤلف الإشارة إلى موقعية الفكر الخلدوني في هذا الدور الكلاسيكي والتأسيسي.

كما يوسع المؤلف نطاق تقصّيه للنظرية الاجتماعية من التأسيس الكلاسيكي ليشمل النظريات الحديثة والمعاصرة، كالبنوية، والنظرية النقدية، إضافة إلى مقاربات ما بعد الحداثة التي تهدف إلى تفكيك السرديات الكبرى، كما يناقش النظريات النسوية وسوسيولوجيا الجندر التي ظهرت في الآونة الأخيرة. وكذلك يعرض المؤلف في بسطه للنظريات المستأنفة للدرس الكلاسيكي الاجتماعي لإسهامات شخصيات: كآنتوني جينز، الذي طوّر نظرية التشكيل البنائي لربط الفعل الفردي بالبنية الاجتماعية؛ وهارولد جارفينكل، الذي ركّز في مقاربتة

الإثنو-منهجية على كيفية إنتاج النظام الاجتماعي في الحياة اليومية؛ وريمون بودون، الذي اشتغل على نظرية الاختيار العقلاني؛ وألان توران، الذي اهتم بتحليل دور الحركات الاجتماعية في إحداث التغيير.

أما قسم المفاهيم فيحلل أربعة مفاهيم مركزية في علم الاجتماع، هي: المجتمع، والجماعة، والبنية، والطبقة. فيتناول مفهوم المجتمع من زاويتين: بوصفه كياناً مادياً وموضوعياً يتشكل من خلال علاقات وظيفية، وبوصفه حقيقةً ذاتيةً تتجسد في أفعال الأفراد وسلوكياتهم. ويستعرض مفهوم الجماعة، موضوعاً أنواعها وخصائصها المختلفة، مثل الجماعات الأولية والثانوية، والجماعات الداخلية والخارجية، مع التركيز على دور هذه الجماعات في تشكيل الانتماء الاجتماعي. كما يناقش مفهوم البنية الاجتماعية من منظور تطورها التاريخي، مبيناً الاختلافات في فهمها بين المقاربات الوظيفية والبنوية. ويختتم هذا القسم بتحليل مفهوم الطبقة الاجتماعية، مستعرضاً النظرة الماركسية التي ترى الصراع الطبقي محرّكاً للتاريخ، إلى جانب منظور ماكس فيبر، الذي يضيف عوامل متعدّدة مثل السلطة والمكانة الاقتصادية في تحديد بنية الطبقات.

إذن، لا يقف هذا الكتاب عند مرحلة التأسيس وحدها، بل يمدّ خيوط الفكر الكلاسيكي إلى النظريات الحديثة والمعاصرة، مبيناً كيف أن القضايا التي واجهها المجتمع في القرن التاسع عشر لا تزال قائمةً في أشكال جديدة في يومنا هذا. ففي كل فصل من فصول الكتاب، يجد القارئ نفسه في مواجهة مع أسئلة تتعلّق بمفاهيم مثل السلطة والهيمنة، والفردية والجماعية، والعقلانية والاندماج، والتماسك والتفكك. وليست هذه مجرد موضوعات نظرية، بل هي قضايا حيّة تمسّ المجتمعات الحديثة، وتفرض علينا التفكير في كيفية مواجهتها.

كما يتميز هذا الكتاب بالجمع بين العمق الأكاديمي والمرونة الفكرية؛ إذ لا يكتفي بسرد الآراء والأفكار، بل يسعى إلى بيان الروابط الخفية التي تربط بين النظريات المختلفة، وبين الفلسفة والواقع الاجتماعي. فهو يدعو القارئ إلى أن يكون شريكاً في التفكير، لا مجرد ناقلٍ أو حافظٍ للمفاهيم. فيتحوّل النص من

مجرد سردٍ للأفكار إلى دعوة مفتوحة لإعادة النظر في كل ما بدا مألوفًا ومستقرًا. وكذلك لا يُلقي هذا الكتاب دروسًا جاهزة، بل يُقدِّم أدوات لفهم أزمت الحاضر وتشخيص مشكلاته. فالعالم اليوم، كما الأمس، يشهد صراعات جديدة تُعيد إلى الواجهة قضايا قديمة في أشكال جديدة. وكيف لا، وقد بات التماسك الاجتماعي مهددًا في ظل العولمة؟ وكيف يمكن فهم التحولات الرقمية، وهي تعيد تشكيل العلاقات الاجتماعية كما فعلت الثورة الصناعية في الماضي؟ إن هذه التساؤلات لا يمكن تجاوزها دون أن نمدَّ جسورًا بين الفكر الاجتماعي الكلاسيكي والفكر الحديث، وهو ما يسعى هذا الكتاب إلى تقديمه.

ومن ثمَّ فإن هذا الكتاب ليس مجرد دليل أكاديمي، بل هو خريطة ذهنية تسير بالقارئ في أزمنة متباينة، وتساعده على رؤية العالم الاجتماعي بأعين مختلفة. فههدف هذا الكتاب ليس أن ينقل المعرفة فحسب، بل أن يوقظ في القارئ حسَّ النقد والتحليل، ويدفعه إلى التفكير في موقعه داخل المجتمع الذي يعيش فيه. فهو بذلك لا يخاطب الطلاب والمتخصصين فحسب، بل كل من يبحث عن فهم أعمق للإنسان والمجتمع.

ومركز نهوض للدراسات والبحوث إذ يُقدِّم هذا الكتاب الرابع من سلسلة «مداخل منهجية في العلوم الإنسانية»، فإنه يأمل أن يُسهم هو وغيره من كتب السلسلة في ترقية المستوى المعرفي لطلبة الجامعات العربية في مجالي العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، على نحوٍ يجاوز الانفصال السائد، وتمكينهم من الأصول والأدوات المنهجية التي بلورها العلم موضوع التعريف.